الرسائل الشعرية عند ابن زيدون

الدكتور محمد مولود خلف المشهداني (*)

تقديم :

ابو الوليد احمد بن عبد الله بن زيدون (١) المخزومي الاندلسي ، واحد من اعلام الادب الاندلسي في عصر الطوائف ، اوتي ثقافة واسعة اشتملت على علوم العصر آنذاك من فقه و لغة و نحو و تأريخ و ادب و غير ذلك من العلوم التي ازدهرت في عصر الطوائف ، على الرغم من الضعف السياسي .

و من يدرس ادب هذا العصر لا بد ان يجد لهذا الشاعر اثرا واضحا و معلما بارزا في الاساليب الشعرية التي عرفتها ساحة هذا الادب بعد ابن زيدون ، بل سيجد له ريادة في التجديد و التطوير و الاضافة في صناعتي الشعر و النثر ، وسوف نكتشف و نحن نقرأ هذا الادب تلك اللمسات الزيدونية البديعة واضحة جلية في كثير من الفنون الادبية . اضف الى ذلك ان حياة ابن زيدون لم تكن على نمط واحد ، بل تقلبت به صروف الدهر و تبدلت به الاحوال ، و احاطت به الاحداث ، حلوها و مرها ، فألقت بظلالها على ادبه ، فشكا و عاتب و مدح و تغزل واستعطف ووصف ، لكن اللافت للنظر ان ابن زيدون قد صاغ كثيرا من قصائد هذه الاغراض في صورة رسائل شعرية ، يمكن ان تعد ضربا من التجديد ، وحسن استخدام الشعر ، حتى بدت هذه الرسائل مظهرا من مظاهر شعر ابن

(*) استاذ اللغة العربية المساعد في قسم اللغة العربية – كلية الآداب / جامعة بغداد .

(١) انظر ترجمته في : قلائد العقيان و محاسن الاعيان ، الفتح بن خاقان الاشبيلي ، ص ٢٩ . الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : ابن بسام الشنقريني ٣٣٦/١/١ ، المغرب : لابن سعيد المغربي ، ص ١٦٤ . اعتاب الكتاب : لابن الابار ، ص ٢٠٧ . ووفيات الاعيان ، لابن خلكان ، ١ / ١٣٩ . و راجع ديوان ابن زيدون ، تحقيق : علي عبد العظيم ، دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة .

زيدون فعبر عن خلالها عن التواصل مع المجتمع ، و عدم الانقطاع عنه . وصاغ ابن زيدون هذه الرسائل باحساس مرهف ، و عاطفة متواصلة بين الشاعر من جهة و بين من حوله من الافراد اصدقاء و محبين ، و من ثم مثّلت هذه الرسائل صلة الادب بالمجتمع الاندلسي في القرن الخامس للهجرة ، و لذلك رأينا هذه الرسائل الشعرية منبثة بين اغلب فنون الشعر عند ابن زيدون ، و هو الامر الذي سيكون عليه مدار بحثنا الموسوم [الرسائل الشعرية عند ابن زيدون] .

و قد قسمت البحث على مقدمة و اربعة مباحث : المبحث الاول : نبذة عن حياة ابن زيدون و ثقافته و عصره . اما المبحث الثاني : فيتناول ظاهرة الرسائل الشعرية و مفهوم هذه الرسائل عند ابن زيدون ، وصلتها بفنون الشعر الاخرى عنده . و اما المبحث الثالث : فيتناول موضوعات الرسائل الشعرية ، ثم المبحث الرابع ذكرت فيه بعض السمات الفنية للرسائل الشعرية .

و اود الاشارة هنا الى ان البحث ليس دراسة احصائية او توثيقية لما ورد من نصوص لهذه الرسائل بل هو اختيارات من شعر ابن زيدون على وفق كل غرض، احاول من خلالها الكشف عن مفهوم الرسائل الشعرية .

نبذة عن حياة ابن زيدون و ثقافته و عصره :

نسبه :

ابو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي القرطبي الاندلسي ، من بني مخزوم من قريش صاحبة المكانة العالية و الرفعة في الجاهلية و الاسلام .

و بيت بني زيدون في الاندلس من اكبر بيوتاتهم جاها و ثقافة وادبا . فقد كان والد الشاعر جم الراوية من اهل النباهة و الجلالة و المعرفة باللغة و الادب ،

فكان فقيها مشهورا بين قضاة قرطبة [١] . اما والدته فهي سليلة اسرة كريمة لا تقل عراقة عن اسرة الاب ، فهي تنحدر من قبيلة قيس عيلان التي كان لها شأن خطير في بلاد الاندلس .

ولادته :

ولد ابن زيدون سنة ٣٩٤ هـ في زمن الدولة العامرية على عهد الحاجب المظفر بن المنصور بن ابي عامر في الرصافة ، حيث كان ابوه مقيما بها الى جوار استاذه الاصيلي ، و الرصافة مدينة متصلة بقرطبة ، قام بأنشائها الامير عبد الرحمن الداخل و سماها الرصافة تشبيها لها برصافة جده هشام ، و اتخذ منها مقرا و متنزها .

نشأته :

نشأ ابن زيدون ، كما ذكرنا سابقا ، في كنف اسرة عريقة ذات مجد و رياسة في مدينة قرطبة ، والده عميد هذه الاسرة و في حضنه عاش الايام الاولى من حياته و نهل من منهله العذب . لكن المنية عاجلت هذا الوالد فحرمت الصبي ابن زيدون الذي لم يتجاوز عاما من حنان الابوة .

ذاق ابن زيدون مرارة اليتم ، لكنه لم يحد عن الطريق التي رسمها له والده في الصعود الى المجد و الرفعة ، اعانه على ذلك طبع سليم و قريحة وقادة و ذكاء حاد و موهبة ممتازة . حتى اذا بلغ العشرين من عمره صار يشار اليه بالبنان ، وكان في جملة النابهين رغم تسارع الاحداث في قرطبة زمن الفتنة و قساوتها وشدة وطأتها على الناس . فالاخبار تشير الى اثره في السياسة و بخاصة نشوء دولة الجهاورة في مدينة قرطبة [٢] .

---

(١) الذخيرة لابن بسام ، ١/١/٢٩٠-٢٩١. و انظر ايضا : ابو الوليد بن زيدون ، دراسة ومختارات ، عبد اللطيف شرارة ، ص ٥٧ .

(٢) قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان ، ص ٢٠٩ .

ثقافته :

قلنا ان والده ابا بكر بن زيدون يعدّ اول معلم له ، و عنه اخذ علوم العصر من فقه و لغة و ادب و تاريخ و غير ذلك ، مما يدخل في ثقافته كونه فقيها وقاضيا ، و بعد ان توفي والده احتضنته مدينته قرطبة دار العلوم و الاداب ، حيث جلس الى علمائها يأخذ منهم العلوم ، لكننا لا نكاد نجد ما يغني في التعريف بهؤلاء و لا بجملة العلوم التي تلقاها [1] . و على الرغم من هذا فاننا لا نعدم وسيلة لمعرفة عناصر ثقافته ، فمعرفة المنهج الدراسي الذي كان شائعا في الاندلس في ذلك الوقت يعطينا صورة واضحة عن المواد التي تلقاها ابن زيدون . كما يمكننا ان نتخذ من اثاره و نتاجه الادبي وسيلة نتلمس من خلالها ثقافة الشاعر . و من ذلك قد نستنتج انه حفظ شيئا من القرآن الكريم و تلقى رواية الادب و ايام العرب وانسابهم و ربما شيئا من علوم الامم الاخرى . و هو ما ينبيء به نتاجه الادبي وبخاصة رسائله على الرغم من ضياع قسم منها الا ان المتبقي مضافا الى شعره يكشف عن مصادره في معرفة الاخبار و الحوادث و الاعلام و الامثال و الحكم والنوادر .

عصره :

امتدت حياة ابن زيدون على عصرين مختلفين من تاريخ الاندلس ، هما عصر الفتنة و عصر الطوائف ، فبعد ان اصبح من المؤكد ان الدولة الاموية في الاندلس لم تعد قادرة على الاستمرار و البقاء ، و بات امر انتهائها وشيكا .

و رأى ابن زيدون في آل جهور ، ما يعيد الى مدينة قرطبة سابق مجدها وعزها ، فمال اليهم حين وجد الرغبة لديهم في الاستقلال و تكوين دولة مثلما حصل في كثير من مناطق الاندلس و مدائنها . و ساعد آل جهور فحفظوا له هذا الجميل حتى اذا استتب لهم الامر ، جعله ابو الحزم بن جهور وزيرا في دولته

---

(١) ابن زيدون ، علي عبد العظيم ، ص ١٠١ .

ظاهرة الرسائل في شعر ابن زيدون :

اولا: مفهوم الرسالة الشعرية عند ابن زيدون :

يتفق اكثر الباحثين ممن درسوا ادب ابن زيدون ان له اضافات ادبية جديدة في فنيّ الشعر والنثر , الا انه من الواضح ان ابن زيدون قد طور في معالجة الموضوعات الشعرية واستخدم اساليب متطورة كان الغرض فيها صياغة المعاني التي يريد ، في صور جديدة تنم عن براعة وحسن تعليل ، لذلك رأيناه يستخدم اسلوب الرسائل وقد احسن في استخدام الشعر في المراسلة فأنت تجد ان عدد الرسائل الشعرية في ديوانه يربو على عدد القصائد او يوازيه ، وهذا جانب من الفن الشعري لم يتوفر احد من النقاد والمحدثين على درسه [١] . وربما كان لبراعة الشاعر ابن زيدون من فنون الكتابة ولاسيما الرسائل ، اثر واضح في الرسائل الشعرية وذلك لما بين الشعر والنثر من صلة قوية ، وهو ما أشار اليه ابن طباطبا العلوي بقوله [ويسلك الشاعر منهاج اصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم فأن للشعر فصولا كفصول الرسائل] [٢] . ولقد ادرك ابن زيدون بما اوتيّ من براعة وقدرة على التجويد تلك الصلة الوثيقة بين الشعر والنثر وجاء كل جانب يتم الجانب الاخر ويضفي عليه حسنا واناقة [٣] .

وغالبا ما كانت رسائله الشعرية تتمم معاني الرسائل الشعرية وهو ما يتضح في رسالته الى ابن افلح النحوي [٤] ، بعد ما فرّ الشاعر من سجنه بقرطبة ،

---

(١) ابو الوليد بن زيدون ، عبد اللطيف شرارة ، ص ٧٥ .

(٢) عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري و محمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٥ .

(٣) الكتاب عدد خاص بالذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ، مجلة يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

(٤) ابو بكر مسلم بن احمد بن افلح النحوي من اهل قرطبة . قال فيه ابن بشكوال : (مع نبله وبراعته و تقدمه في علم العربية و اللغة ، راوية للشعر و كتب الادب) ، الصلة ٣/ ٩٠٣ ، بتحقيق : ابراهيم الابياري ، بيروت ، ١٩٨٩ .

ظاهرة الرسائل في شعر ابن زيدون :

اولا: مفهوم الرسالة الشعرية عند ابن زيدون :

يتفق اكثر الباحثين ممن درسوا ادب ابن زيدون ان له اضافات ادبية جديدة في فنيّ الشعر والنثر , الا انه من الواضح ان ابن زيدون قد طور في معالجة الموضوعات الشعرية واستخدم اساليب متطورة كان الغرض فيها صياغة المعاني التي يريد ، في صور جديدة تنم عن براعة وحسن تعليل ، لذلك رأيناه يستخدم اسلوب الرسائل وقد احسن في استخدام الشعر في المراسلة فأنت تجد ان عدد الرسائل الشعرية في ديوانه يربو على عدد القصائد او يوازيه ، وهذا جانب من الفن الشعري لم يتوفر احد من النقاد والمحدثين على درسه [١] . وربما كان لبراعة الشاعر ابن زيدون من فنون الكتابة ولاسيما الرسائل ، اثر واضح في الرسائل الشعرية وذلك لما بين الشعر والنثر من صلة قوية ، وهو ما أشار اليه ابن طباطبا العلوي بقوله [ويسلك الشاعر منهاج اصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم فأن للشعر فصولا كفصول الرسائل] [٢] . ولقد ادرك ابن زيدون بما اوتيّ من براعة وقدرة على التجويد تلك الصلة الوثيقة بين الشعر والنثر وجاء كل جانب يتم الجانب الاخر ويضفي عليه حسنا واناقة [٣] .

وغالبا ما كانت رسائله الشعرية تتمم معاني الرسائل الشعرية وهو ما يتضح في رسالته الى ابن افلح النحوي [٤] ، بعد ما فرّ الشاعر من سجنه بقرطبة ،

---

(١) ابو الوليد بن زيدون ، عبد اللطيف شرارة ، ص ٧٥ .

(٢) عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري و محمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٥ .

(٣) الكتاب عدد خاص بالذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ، مجلة يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

(٤) ابو بكر مسلم بن احمد بن افلح النحوي من اهل قرطبة . قال فيه ابن بشكوال : (مع نبله وبراعته و تقدمه في علم العربية و اللغة ، راوية للشعر و كتب الادب) ، الصلة ٣/ ٩٠٣ ، بتحقيق : ابراهيم الابياري ، بيروت ، ١٩٨٩ .

وبقي مدة مستخفيا بضاحية الزهراء ، وفيها يلتمس شفاعته ، قال فيها [١] :

عليك ابا بكر بكرت بهمة لها الخطر العالي وأن نالها حط
ابي بعد ما هيل التراب على ابي ورهطي فذا حيث لم يبق لي رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالها عليّ ولامجد لدي ولا غمط
ولولاك لم تثقب زناد قريحتي فينتهب الظلماء من نارها سقط
ولا ألفت ايدي الربيع بدائعي ضمن خاطري نثر ومن روضه لقط

أن الجديد في تناول الرسائل الشعرية عن ابن زيدون ،هو أن الموضوعات التي تطرحها هذه الرسائل لم تعد ضربا من التواصل الاجتماعي ، أو صيغة من صيغ التعامل بين افراد المجتمع والذي يبتعد عن العاطفة ، ويفتقر الى الروح الشعرية ، بل استطاع ابن زيدون أن يبعث هذه الروح في موضوعات رسائله الشعرية فتأتي مليئة بالصور والاخيلة ، زاخره بالمشاعر الوجدانية ، وهو مايتضح في رده على ابيات الوزير ابي عامر بن مسلمة [٢] التي عاتبه فيها بقوله [٣] :

تباعدنا على قرب الجوار كأنا صدنا شحط المزار
تطلع لي هلال الصبر بدرا وصار هلال وصلك في سرار

وفيها :

فراع مودتي واحفظ جواري فأن الله اوصى بالجوار
وزرني منعما من غير امر وآنس موحشا من عقر دار

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٨ .

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة ، ابو عامر الوزير ، اديب شاعر من اهل اشبيلية ذكر الحميدي ان له كتابا سماه حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح . انظر ترجمته في جذوة المقتبس ١/ ١١٣ و مطمح الانفس للفتح بن خاقان . تحقيق : محمد علي شوابكة . بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٣ .

(٣) الديوان . ص ٢٠٤ .

فأجابه ابن زيدون [١] :

هوايَ وأن تناءت عنك داري كمثل هواي في حال الجوار
مقيم ولا تغيّره عواد تباعد بين احيان المزار
رأيتك قلت : أن الهجر بدر متى حلت البدور من السرار
ورابك انني جلد صبور وكم صبر يكون عن اصطبار

وفي الاخبار ما يشير الى التخاطب بين ابن زيدون وولاة بنت المستكفي ، كان يجري احيانا عن طريق المراسلات الشعرية [٢] :

فقد كتبت ولادة الى الشاعر تقول [٣] :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فأني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يسر

وبعد ان التقى ابن زيدون بولادة ، وحانت لحضة الوداع قال [٤] :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السر على أن لم يكن زاد في تلك الخطا أذ شيعك
يا اخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا اطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت اشكو قصر الليل معك

لقد ظهرت الرسالة الشعرية في شعر ابن زيدون ولاسيما ذلك الشعر الذي صور فيه لوعة البعاد والفراق بينه وبين ولادة ، وكذلك ما صور فيه معاناته وهو اسير السجن ، فكانت هذه الرسائل الشعرية التي كان يبعث بها الى ولادة أو غيرها ، وسيلة عبّر من خلالها عن عواطفه واحاسيسه ، فجاءت هذه الرسائل مرتبة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .
(٢) راجع مجلة الكتاب ، ص ٢٤ .
(٣) الذخيرة ، ١/١/ ٣٣٧ .
(٤) الديوان ، ص ١٦٧ .

الافكار محددة المعالم ، تتراوح بين الاعتدال والثورة وتتميز بالانتقاء اللفظي ، وحلاوة الجرس الموسيقي [١] .

ثانيا : صلة الرسائل بفنون الشعر عند ابن زيدون :

لم تكن الرسائل الشعرية عند ابن زيدون وقفا على غرض معين أو فن محدد من فنونه الشعرية ، بل كانت اغلب هذه الفنون مجالا لرسائل ابن زيدون الشعرية.

وعلى الرغم من ان عددا من الشعراء المعاصرين بنّ زيدون قد نظموا في موضوعات كثيرة على هيئة رسائل ، الا ان ابن زيدون استطاع ان يطور هذا الاتجاه الشعري ، وأن يبرع فيه . وكان احد اسباب هذه البراعة ان بعض من كانت له به صلة قد شاركه في نظم هذه الرسائل فكانوا يبعثون اليه بالرسائل الشعرية في اغراض متعددة فولادة بنت المستكفي بادلته الرسائل الشعرية التي تفيض رقة وعذوبة في باب الغزل والحب والهيام والعتاب [٢] والامير المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بادله رسائل الشعر في الاهداء والاستهداء والاخوانيات والمطيرات [٣] . وكذلك بادله الشعر الوزير ابو بكر بن الطبني [٤] . والشاعر ابو عبد الله ابن عبد العزيز [٥] . وابو عامر بن مسلمة ، وابو بكر بن

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف و المرابطين ، د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٦ .

(٢) انظر : الديوان ، ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٧٤ .

(٣) انظر : الديوان ، ص ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٦٠٦ ، ٦١٠ ، ٦١٦ .

(٤) ابو بكر ابراهيم بن يحي بن محمد محمد الطني ، اديب شاعر من اهل بيت ادب و علم وجلالة . انظر : جذوة المقتبس ١/ ٢٤٦ . و انظر : ديوان ابن زيدون ، ص ٢٠٠ .

(٥) ابو عبد الله بن محمد بن مروان بن عبد العزيز ، وزير عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية ، شاعر و كاتب مجود . انظر : مصمح الانفس ، ص ١٧٣ . و انظر : ديوان ابن زيدون ، ص ٢٠١ .

القصيرة [١] كل هؤلاء واخرون شاركوا ابن زيدون ابواب القول في الرسائل الشعرية .

مما تقدم يمكننا القول بان رسائل ابن زيدون الشعرية قد شملت كثيرا من الاغراض ، وهو ما سنحاول ان نتبينه من خلال دراسة هذه الرسائل على وفق الموضوعات والاغراض الشعرية .

موضوعات الرسائل الشعرية عند ابن زيدون :

اولا : رسائل الغزل :

لقد كان للجانب العاطفي تأثيرا كبيرا في حياة الشاعر ابن زيدون ، وتمثل هذا الجانب في صلته بولادة بنت المستكفي محمد بن عبد الرحمن الذي تولى الخلافة سنة ٤١٤هـ .

ذكر ابن بسام هذه الاميرة الشاعرة فقال : [وكانت من نساء اهل زمانها واحدة اقرانها ، حضور شاهد وجرارة اوابد ، وحسن نظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار المصير ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو اهل الادب الى ضياء غرتها ويتهالك افراد الشعراء و الكتاب على حلاوة عشرتها] [٢] .

وتلك هي اميرته وملهمته في شعره ، اليها كتب اروع رسائل الغزل الشعرية ويبدو ان علاقته بولادة قد مرت بمرحلتين . الاولى ايام هناء ووصل وتصاف لكنها كانت قصيرة ، ومرحلة ثانية ذاق فيها الشاعر لوعة البعد والم الهجران ومرارة التجافي .

---

(١) ابو بكر محمد بن سليمان الكلاعي المعروف بابن القصيرة ، كاتب المعتمد بن عباد . كتب ليوسف بن تاشفين . رأس اهل البلاغة في وقته ، توفي سنة ٥٠٨ هـ ، انظر : قلائد العقيان ، ص ٣٠٥ . الذخيرة ٢٣٩/١/٢ و خريدة القصر قسم الاندلس ٣٤٢/٢ ، اعتاب الكتاب ، ص ٢٢٢ . و انظر : ابن زيدون ، ص ٢٠٩ .

(٢) الذخيرة : ٣٧٩/١/١ .

ومن الواضح ان رسائله الغزلية قد استوفت المرحلتين وتناولت الحالتين حالة الرضى والسعادة ، وحالة الهجر والخصام .

كتبت ولادة الى ابن زيدون تقول [١] :

الا هـل لنـا مـن بعـد هـذا التفرق سبيـل ؟ فيشكو كل صب بما لقي
وقـد كنـت اوقات التزاور في الشتا ابيت على جمر من الشوق محرق
فكيـف ؟ وقد امسيت في حال قطعة لقـد عجل المقـدار ما كنت أتـقي
تمـر الليـالي لا أرى البيـن ينقضي ولا الصبر من رق التشوق معتقي
سقى الله أرضـا قد عدت لك منزلا بكل سـكوب هاطل الودق مغـدق

فأجابها ابن زيدون بقوله [٢] :

لحـا اللـه يومـا لست فيه بملتـق محيـاك مـن اجـل النوى والتفرق
وكيف يطيـب العـيش دون مسرة وأي سـرور للكئيـب المـؤرق ؟

ولابد من القول ان للغزل في ديوان ابن زيدون نصيبا كبيرا ، فربما شغل ثلث في ديوان الشاعر الجانب الاهم ، حتى لاتجد قصيدة يخلو مطلعها منه ، الاما ندر ، بالاضافة الى غزل مستقل لايرد مع غرض اخر ، من ذلك قصيدته النونية التي تعد اهم رسائله الشعرية وابرزها ، ارسل بها الى ولادة بعد ان فرقت بينهما الايام .

والواقع ان ابن زيدون في رسالته النونية ابدع كثيرا واحسن في مراميه ومقاصده فكانت قصيدته من غرر القصائد ، ولقد جعل ابن زيدون منها معرضا للعواطف والاحاسيس ، وتنوعت معانيها بين يأس وامل وشوق وعشق وغزل وشكوى وخوف وحنين [٣] .

---

(١) الديوان ، ص ٧٨٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) راجع الادب الاندلسي موضوعاته و فنونه . د. مصطفى الشكعة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٢ .

قال ابن زيدون [١] :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا ونـاب عـن طيب لقيانا تجافينا
الا وقد حان صبح البين صحنا حين فقام بنا للحين داعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنا مع الدهر لايبلى ويبلينا
ان الزمان الذي مازال يضحكنا انسا بقربهم قدعاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر امينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا وانبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخش تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
ياليت شعري ولم نعتب اعاديكم هل نال حظا من العتبى اعادينا
لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلد غيره دينا
ما حقنا ان تقروا عين ذي حد بنا ولا ان تسروا كاشحا فينا

لقد بلغ ابن زيدون في نونيته هذه الزروة في [الربط بين حركة النفس وحركة الفن الشعري حتى التحمت الحركتان التحاما لايكاد يفصل بينهما فاصل] [٢] .

وعلى العموم فقد تميزت رسائل الغزل الشعرية بتلك الموسيقى العذبة ، وذلك الايقاع الرائع والمتناسق في ما بين الالفاظ ودلالتها في ثنايا الابيات على امتداد القصيدة ، ومن الملاحظ ايضا ان ابن زيدون في رسائله الغزلية لم يسرف في اتخاذ الزينة اللفظية بل ان ما ورد في رسائله جاء متمشيا مع الجو العام للرسائل على وفق اسلوب متوازن بين الدلالة المعنوية واللفظية للمفردة وكذلك للعبارة . لذلك رأيناه غير متكلف ، بل هو مطبوع على السهولة والسلاسة والعذوبة والرقة.

---

(١) الديوان ، ص ١٤١ .

(٢) التجربة الانسانية في نونية ابن زيدون . د. سعيد حسين منصور ، المطبعة الوطنية ، قطر ، ١٩٨٤ ، ص ١٠ .

ثانيا - **رسائل المطارحات :**

كانت لابن زيدون صلات واسعة بكثير من اعيان عصره ووجهاء عصره منذ وقت مبكر فقد ارتبط بصداقات عديدة مع الادباء والحكام ونال عندهم حظوة ومنزلة قل من نالها من شعراء آوانه .

وابن زيدون وفي لاصدقائه ، ملك عليهم قلوبهم ومشاعرهم مثلما اوغر صدور حاسديه ومناوئيه عليه [١] . ولقد جاء ادبه يمثل هذه الصداقات ويفصح عنها وبخاصة شعره ، وهو ما حواه فن الاخوانيات الا ان الذي يعنينا من هذا الفن هو غرض المطارحات وفيه نرى ان الشاعر يداعب اصدقاءه ويرسل لهم رسائل العتاب والتودد وهم يجيبون عليه بالوزن نفسه والقافية ذاتها ، وربما جاءته رسائلهم فكان عليه ان يجيب بالاسلوب والطريقة نفسها [٢] .

لقد تجلت في هذه الرسائل العذوبة والرقة ، فضلا عن العاطفة القوية والمشاعر الصادقة التي [كانت تتسع وتسمو فتمتد الى اصدقائه فيناجيهم مناجاة اقرب الى الغزل منها الى المطارحات] [٣] .

كتب الوزيرابو بكر بن الطبني الى ابن زيدون هذه الابيات [٤] :

ابا الوليد وما شطت بنا الدار	وقل منا ومنك اليوم زوار
وبيننا كل ما تدريه من ذمم	وللصبا ورق خضر ونوار
وكل عتب واعتاب جرى فله	مواقع حلوة عندي واثار
فاذكر اخاك بخير كيفما لعبت	به الليالي ، فان الدهر دوار

---

(١) انظر : مقدمة ديوان ابن زيدون ، ص ٢٦ .

(٢) انظر : ديوان ، ص ١٩٨ .

(٣) الديوان ، ص ٩٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ .

فاجابه ابن زيدون على البديهة في ظهر رقعته :

لـو انني لـك فـي الاهواء مختار لمـا جـرت بالذي تشكوه اقدار
لكنـها فتـن فـي مثـل غيهبهـا تعمى البصائر ان لم تعم ابصار
فأحسـن الظـن لا تـرتب بعهد فتى تعفـو العهـود وتبقـى منه اثار
لـو كان يعطى المنى في الامر يمكنه لمـا أعيـك يومـا منـه زوار
لايكثـر العتـب فـي ذكر الصديق به مـن ليـس يجهل ان الدهر دوّار

وكتب المعتمد بن عباد الى الشاعر بعد ان فك معمى تلقاه منه [١] :

العيـن بعـدك تقذى بكـل شـيء تراه
فليجل شخصك عنها مـا بالمغيـب جناه

وأبطأ ابن زيدون في الرد ، فكتب اليه المعتمد :

وعـدت واخلفتـني المـوعدا وخالفـت بالمنتهى المبتدا
واطمعتنـي ، ثم ايأستنـي ويمنعنـي الود أن احقدا

ومن رسالته الشعرية الى ابن زيدون قوله ايضا [٢] :

لك العلـم مهمـا أرد بحره لاروى بـه أحمـد الموردا
وفيـك تجمعـت المأثـرا ت طرا ،فصرت بها مفردا

فاجابه ابن زيدون [٣] :

أخاض سماحك بحر الندى وأ قبس هديك نور الهدى
ورد الشباب أعتلا فيك بعد مفارقتـي ظلـه الأبردا
وما زال رأيك في الجميـل يفتـح الامـل الموصدا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

ومنها قوله ايضا:

أتانـــي عتاب متى أدكر ... ه في نشوات الكرى أسهدا
وأن كـان أعقبه ماأقتضى ... شـفاء السقام ونقع الصدى
ثناء ثنـى في سناء المحـ ... ـل زهـر الكواكب لى حدا

ثالثا - **رسائل الاهداء والاستهداء:**

لما كان الظرف من صفات أبن زيدون الحسنة ، وكانت الرقة وسرعة البديهية من خصاله الحميدة ، مما جعل لـه مكانـة عظيمـة عند اصدقاءه ، فكان كما وصفه أبن خاقان بأنه [حل عندهم محل الحميا في الكؤوس ، ووقع منهم موقع البشائر من النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله، ومسرة تغازله ، ومكارمه تغاويه ، ومجاملة كرائح القطر وغاديه] [1] .

لقد كان أبن زيدون حفيا بأصحابه وخلانه،لا يترك مناسبة دون أن يفصح عن خلجات نفسه السمحة،ولا يغادر فرصة دون أن يعبر عن صفاء سريرته النقية، لذلك أهدى وأستهدى [وبعث الى خلانه و أصدقاءه بأصناف الهدايا و تقبل هداياهم، وبادلهم تحية بتحية ،وقارضهم ثناء بثناء،في عبارات رقيقة تنبض بالود وتشع بالوفاء] [2] وأتبع هذه الهدايا أبياتا من الشعر ،وصف فيها الهدايا وذكر صفات المهدي.

من ذلك أن أبن زيدون أهدى صنفا من العنب أسمه (اطراف العذارى) الى جده الوزير أبي بكر محمد بن محمد بن أبراهيم [3] و كتب معه [4] :

---

(١) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ص ٢٢٧ .

(٢) الديوان ، ص ٢١٩ .

(٣) ابو بكر محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسي ، من اهل قرطبة ولي القضاء بمدينة سالم ، ثم احكام السوق و الشرطة بقرطبة ، و كانت له عناية بالعلم و الادب ، توفي سنة ٤٣٢ هـ . انظر : الصلة لابن بشكوال ٢/ ٧٦٢ ، بتحقيق : ابراهيم الابياري .

(٤) الديوان ، ص ٢١٩ .

أتــاك محييــا عني أعتبارا عـذارى دونه ريق العذارى
تخــال الشــهد منه مستمدا و نفح المسك منه مستعارا
يـروق العين منه جسم ماء غـدا ثوب الهواء له شعارا
و لــولا أننــي قد نلت منه ولم أسكر لخلت به عقارا
بعثــت به ولو أهديت نفسي اليك لكان من بري اقتصارا
فأنعــم بالقبـول قرب نعمى أعـدت بهـا دجى ليلي نهارا

وأهدى أبن زيدون الى المعتمد بن عباد هدية من التفاح و كتب معها [1] :

يا مــن تزينــت الريــــا ســة حيــن ألبــس ثوبها
ولــه يــد يئــس الغمــا م من أن يعارض صوبها
جاءتــك جامــدة المــدا م فخــذ عليهــا ذوبــها

رابعا - رسائل المطيرات :

المطيرات رسائل شعرية دارت بين أبن زيدون والمعتمد بن عباد الا مطيرة واحدة ، دارت بين الشاعر وأبي طالب محمد بن مكي [2] .

وعلى الرغم من أن المطيرات نوع من المطارحات الشعرية ألا أننا أفردنا الكلام عنها لتميزها بموضوع محدد و معين ، نهضت به هذه الرسائل الشعرية ، وهو الاحاجي والالغاز ، حيث دارت هذه الرسائل كلها على اسماء الطيور ، فجاءت أبياتها معماة بأسماء الطيور فتتكشف رموزها عن هذه الاسماء ، فلقد جعل الشاعر لكل طائر حرف يرمز اليه و ربما تغير هذا الرمز في قصيدة ثانية.

و كان أبن زيدون يبعث بالمطيرات الى المعتمد بن عباد يطلب منه فك المعنى و معرفة اسماء الطيور ، شرط أن تكون الاجابة شعرا ، لهذا فهي رياضة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .

(٢) ابو طالب محمد بن مكي بن ابي طالب القيسي ، من اهل قرطبة ، ولي فيها احكام الشرطة و السوق مع الاحباس و امانة الجامع ، له حظ من الادب ، توفي سنة ٤٧٤ هـ ، الصلة ٣ / ٨٠٨ .

ذهنية وتدريبات شعرية [١] .

ان هذا النوع من الرسائل الشعرية من مبتدعات أبن زيدون ، به عرف، ولم يؤثر عن غيره،وهو يحمل من البراعة الفنية وحسن الاسلوب ما لاتجده في ما عداه من الانماط الشعرية ، الامر الذي يفصح قدرة فنية عالية أوتيها أبن زيدون،مكنته من صياغة الالغاز والاحاجي في صورة رائعة من صور الرسائل الشعرية.

كتب أبن زيدون الى المعتمد قصيدة مطيرة هي [٢] :

أيهـــا الظافر لازلـــــــت مـدى الدنيا مظفر
أنت أسنى أبن لاسمى والـد فـــي الدهر فافخر
ان تـرد شرح معمى هـــو في نظمي مصمر
فاسـأل الشاهين ، والصعـــرين ، والعنقـاء تخبـر
ثـم راك القفـر، والغيـــاد ، والنســـــر المعمـــر
ثـم بعـد الديـك عد للنســـــر والـرال المنفر
ثـم عـد للنسر والرأ ل فكـــل قـد تكـــرر
والحبـاري والسماني والشقـــــراق المحبـــر
ثـم سائل بعـدها البا زي ان حـــل فصرصر
معـه الطاووس والـديـــــك اذا بالصبـــح بشـر
تلـوه القمـــري مهما ردد السجـــع فقرقـــر
ثـم نـاد الهيق والرا ل، لعـــل السر يظهر
وتعـيف مـا لدى القبـ جيـن من خاف سيظهر
ثـم عـد للنسـر والرا ل همـا في الامر أكثر
وأزجـر العقعـــق حـــق الزجـــر ان الطيـر تزجر
وليـــل الـرأل سماني وشـــقراق تـــــأخر

(١) المصدر نفسه ، ص ٦١٠ .

ففك المعتمد بن عباد البيت المعمى وهو[١] :

صدق لنا فال السمة تظفـــر علـــيّ الكلمة

وكتب معه هذه الابيات:

أيهـــا الفائق اهل الـ عصـــرفي مرأى ومخبر

لك آراء متـــى تنـــ هـــد الى الاعداء تظفر

وافـــق العنبر من لفـ ظـــك من ذهني مجمر

فعرفنـــا بذكـــي الـــ عرف ما قد كان مضمر

في الجوانب الفنية للرسائل الشعرية عن أبن زيدون :

مما مر يتضح ان أبن زيدون من شعراء الاندلس الذين تأثرت ملكتهم الشعرية بحياتهم وبجملة الاحداث التي مرت عليهم . لذلك كانت معالم هذه السيرة الذاتية قد طبعت مياسمها على شعره فتمثل ذلك في تعدد موضوعاته وكثرة مناحيه، ومن هنا رأينا شعره يعبر بصدق عما أحست به نفسه،وغدت القصيدة عند أبن زيدون رسالة تحمل أفكاره وآراءه ووسيلة من وسائله المتعددة للاتصال بالاخرين.

---

(١) لقد عرف المعتمد بن عباد ما كانت ترمز اليه اسماء الطيور من الحروف في قصيدة ابن زيدون ، و هي على ما يبدو كما يأتي :

شاهين:	ص	نسر:	أ	بازي:	ت	نسر:	أ
صقر:	د	رال:	ل	طاووس:	ظ	رأل:	ل
عنقاء:	ق	نسر:	أ	ديك:	ف	عقعق:	ك
رأل:	ل	رال:	ل	قمري:	ر	رأل:	ل
فياد:	ن	حباري:	س	هيق:	ع	سماني:	م
نسر:	أ	سماني:	م	رأل:	ل	شقراق:	هـ
ديك:	ف	شقراق:	هـ	قبج:	ي		

انظر : ديوان ابن زيدون ، ص ٦١٠ ، الحاشية ، رقم (١) .

ولقد أشار الدكتور احسان عباس الى هذه الظاهرة في شعر أبن زيدون بقوله:[ان القصيدة قد اصبحت رسالة تكتب لا وصفا للمرأة ولا كلفا بالمناجات الذاتية، وكان من دواعي هذا الموقف ان تتخذ سياقا عاطفيا وفكريا محددا بحدود الرسالة نفسها ، فقصيدته (أضحى التنائي بديلا من تدانينا) وقصيدته (انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا) وقصيدته (لئن قصر اليأس منك الامل) وتلك التي خاطب بها ابن عبدوس (أثرت هزبر الشرى اذ ربض) وغير هذه القصائد انما هي جميعا في قالب رسائل] [١] .

لقد استطاع أبن زيدون في رسائله الشعرية ان يربط بين حركة النفس البشرية وحركة الفن الشعري ، فجعل كل جانب من هذين الجانبين في خدمة الأخر فحيثما كانت حالات النفس بين ألم ممض أو حزن شديد أو فرح غامر ، كانت الجوانب الفنية في خدمة هذه الحالات ، وفي انسجام وتوافق معها ، وهو ما يتضح في رسالته الشعرية التي بعث بها الى ولادة ، قال فيها [٢] :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والافق طلق ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لي فاعتل أشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كأن أعينه اذ عاينت ارقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ان رسائل ابن زيدون الشعرية تفصح عن عاطفة خصبة ، وقد انعكست هذه العاطفة على موسيقى الشعر لديه ، فجاءت الموسيقى ملائمة لهذه العاطفة [فهي تارة ثائرة وتارة هادئة، وقد ترد مسهبة ، وربما كانت مرحة راقصة ، وربما كانت قاتمة مجللة بالسواد] [٣] .

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ، عصر الطوائف و المرابطين ، ص ١٦٦ .
(٢) الديوان ، ص ١٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

ولهذا يبدو واضحا اختيار أبن زيدون للوزن والقافية في رسالته الشعرية التي بعث بها الى أهله ومحبوبته ، بعد ما حل العيد وآنس كل الى أهله وسعد بوطنه، ونظر الشاعر فرأى نفسه نازحا عن وطنه ، غريبا ، فقال [١] :

هل تذكرون غريبا عاده شجن — من ذكركم وجفا أجفانه الوسن؟
يخفي لواعجه والشوق يفضحه — فقد تساوى لديه السر والعلن
ياويلتاه أيبقى في جوانحه — فؤاده وهو بالاطلال مرتهن

ومنها :

أن كان عادكم عيد فرب فتى — بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
وأفردته الليالي من أحبته — فبات ينشدها مما جنى الزمن

أن قدرة أبن زيدون الفنية جعلته يراعي ترتيب الالفاظ وتنسيق العبارات في رسائله الشعرية حتى يتمكن من صياغة المعنى على وفق صورة ينأى بها عن الصور التقليدية ، بل يضع المعنى في أطر جديدة ، من خلال ذلك الايقاع الموسيقي للكلمات والعبارات وتلك الظلال الموحية التي تعكس الالفاظ .[فالالفاظ التي يختارها الاديب والنسق الذي يرتبه فيه عنصران أصيلان في تعبيره، وفي قيمة عمله الادبي ، لأنهما هما وحدهما اللذان ينقلان الينا كامل شعوره] [٢] .

ولعل هذا واضح في قول أبن زيدون وهو يكتب الى المعتمد بن عباد [٣] :

أسقط الطل فوق النرجس — أم نسيم الروض تحت الحندس
أم نظام للآل نسق — جامع كل خطير منفس
أم قريض جاءني عن ملك — مالك بالبر رق الانفس
دلهت فكري من ابداعه — حيرة في منطق لي فحرس
بت منه بين سهل مطمع — خادع يتلى بحزن موئس

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
(٢) النقد الادبي / اصوله و مناهجه ، سيد قطب ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٩٥٤ ، ص٤٤.
(٣) الديوان ، ص ٢١٢ .